المائدة فى الأدب العربي (×)

الدكتور جميل سعيد
(عميد كلية الآداب)

يرى بعض الباحثين فى علم النفس ان الغريزة التي تدفع الانسان وراء قوته أقوى الغرائز • ويقولون لو ان امرأة تركت مع طفلها في الصحراء وبلغ بهما الجوع غايته ، ثم عثرت على ما يسد الرمق ، فانها – في الغالب – تقدم نفسها على طفلها ، بل ربما أكلت بعض الامهات اولادها وهذا ما يحدث لكثير من انثى الحيوان • وهكذا يرون ان الغريزة التي تدفع الانسان وراء طعامه تغلب – في كثير من الاحيان غريزة حفظ النوع والغريزة الجنسية ، وهما أقوى الغرائز •

والعرب يعرفون ان الانسان اذا تضافر عليه العشق والجوع نسى العشق ساعة يلح عليه الجوع ، فكأن الطعام مقدم عندهم على كل شيء • وفي حماسة ابي تمام[1] •

انخ فاصطبغ قرصاً اذا اعتادك الهوى ... بزيت كما يكفيكَ فقدَ الحبائب
اذا اجتمع الجوع المبرح والهوى ... نَسِيتَ وصالَ الآساتِ الكواعبِ

فأنت تراهم يشيرون الى ان الجوع المبرح يُنسى صاحبه الهوى ، وادا ما اجتمعا غلب الجوع • ومن احاديثهم ما يروى عن الاصمعي انه قال :

« اصطحب شيخ وحدث ، وكان لهما قرص في كل يوم ، وكان الشيخ مخلع الاضراس بطيء الاكل وكان الحدث يبطش بالقرص حتى اذا ما انتهى منه جلس يشتكي العشق ، والشيخ يستمع اليه ويتضور جوعا ، وكان الحدث يسمى جعفرا ، فقال الشيخ :[2] •

(×) القي هذا الحديث بنادي كلية الآداب في شهر رمضان المبارك •
(١) شرح المرزوقي ١٨٥٣/٤ وما بعدها •
(٢) العقد الفريد ط العريان ١٢/٨ •

لقـد رابني من جعفـر ان جعفـرا بطيش بقرصي ثم يبكي على جمـل
فقلت له لو مسّك الحبّ لـم تبت بَطيناً ، ونسّاك الهوى شدّة الأكل

فاننا نرى الحدث لا يشتكي الحب الا بعد ان يبطش بقرص الشيخ ويشبع ، فاذا هو شبع راح يشتكي هواه ، أما والجوع يلح عليه فلا .

واذا نحن نظرنا الى شعرهم الغزلي رأينا شهوة الطعام تتطلع الينا من ثناياه ، وترى بعضهم اذا اراد ان يمتدح امرأة ويفرط في المديح شبهها او شبه اعضاءها المحببة اليه بنوع الطعام وفي حماسة ابي تمام[1] :

فانك ان ترى عرصاتِ جُملٍ بعاقبـــة فأنت اذاً ســـعيد
لها عينـــان من اقِط وتمـــرٍ وســـائر خلقها بعـــد الثريد

فعيناها ـ كما ترى ـ اقط وتمرٌ وسائر خلقها ثريد ، وماذا وراء هذا في نفس البدوى الجائع ؟ ويقول اخر :[2]

الاربّ خَود عينُها من خزيرة وانيابها الغرّ الحسان سويق

والخزيرة : دقيق يلبك بالشحم . والسويق : دقيق الحنطة الناعم .

ويقول آخر :[3]

كأن ثناياها ، وما ذقت طعمها لبانعجـة سوّطتـه بســـويق

يقال سطت الشيء : اذا جمعته مع غيره في الاناء ، وضربتهما حتى يختلطا .

ثم انظر الى سهم الحب الذي رمى به احدهم اذ يقول :[4]

رمتني بســهم الحبّ أما قذاذه فتمـــر وأما ريشـــه فسويق

(والقذاذ جمع القذه : وهي الريش . ويقال قذذت السهم : اذ جعلت له قذذا) .

---

(١) الحماسة ٤/١٣٥٨ .
(٢) الحماسة ٤/١٨٥٤ .
(٣) الحماسة ٤/١٨٥٤ .
(٤) الحماسة ٤/١٨٥٤

وعساك لا تعجب حين تسمع هذا من قوم يلح عليهم الجدب في كثير من الأحيان ويعز عليهم ما يتبلّغون به، وذلك لجدب صحرائهم وخلوها ـ في كثير من الاحيان ـ مما يؤكل من نبات او حيوان • ويقولون ان الجوع يلح عليهم ، وربما ابتلع احدهم الريح او مضغ القيصوم والشيح ، او حرش اليربوع والضبّ [1] • وكان الغالب من أهل باديتهم لا يعاف شيئا من المآكل لقلّتها عندهم ولحاجته الماسة التي تدفعه اليها • وحسبك ان تعلم العوز يلح عليهم حتى يضطرهم الى قتل اولادهم من الاملاق • يقول سبحانه وتعالى ، وقد حرم ذلك عليهم وزجرهم عنه ، « قل[2] تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ، الاّ تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا اولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم » ويقول سبحانه من قائل : « قد[3] خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم ، وحرّموا مارزقهم الله افتراءً على الله • قد ظلوا وما كانوا مهتدين » ، ولعلك تكون على بينه من هذه البيئة الشحيحة القاسية حين تقرأ الآية الكريمة ، فترى فيها ما احلّ الله من المطاعم : « قل[4] لا أجد في ما اوحي اليّ محرّما على طاعم يطعمه ، الا ان يكون ميتة او دما مسفوحا ، او لحم خنزير • فانه رجس ، او فسقا اهلّ لغير الله به » • وحتى هذه احلّها سبحانه للمضطر • قال تعالى « فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد ، فان ربك غفور رحيم » •

ولعلك ترى الآن واضحا ما جعلهم يمدحون بالكرم ويديرونه في اشعارهم ، ويذمون بالبخل • ولقلة الطعام وشح البيئة لا تراهم يعرفون ما شاع عن غيرهم من التأنق في الاطعمة تتعدد الوانها واشكالها • بل ولا كانت تخطر بخاطرهم • يحكى ان عبدالله بن جدعان ، وكان سيدا شريفا في قريش ، وفد على كسرى مرة فأكل عنده الفالوذج فتعجّب منه وسأل عن حقيقته فقيل له : هي لباب البُرّ يلبك مع العسل • ويقولون انه ابتاع غلاما يصنعه وقدم به مكه ، فصنع بهـا الفالوذج ،

---

(١) بلوغ الأرب للآلوسي ١/ ٣٨٠ •
(٢) سورة الانعام الآية : ١٥٠ •
(٣) سورة الانعام الآية : ١٣٩ •
(٤) سورة الانعام الآية : ١٤٤ •

ووضع موائده بالأبطح ونادى عليها .. فكان ممن حضر اميّة بن ابي الصلْت الشاعر ، فراح يمدحه بهذا[1] . ويجوع جائعهم ويتمنى الطعام ، وغاية ما يتمناه منه يبدو في قوله :

الا ليت لي خبزا تسربل رائباً ... وخيلا من البرنيّ فُرسانها الزبد
فاطلب فيما بينهنّ شهادة ... بموت كريم لا يعدّ له لحد

فأنت تراه لا يتمنى اكثر من الخبز واللبن والتمر والزبد ، ثم يتمنى ان يكون عنده هذا ، وان يظل يأكل حتى يموت أو يكون غاية ما يشتهيه جائعهم ويتمناه ما نراه في قول ذلك الأعرابيّ : أشتهي ثريدة دكناء من الفُلفل ، رقطاء من الحمص ، ذات حفافين من اللحم ، لها جناحان من العُراق ـ والعراق العظام اذا لم يكن عليها شيء من اللحم ـ اضرب فيها كما يضرب وليّ السوء بمال اليتيم[2]. ويقول الأصمعيّ : « كنت يوما عند هارون الرشيد فقدّمت اليه فالوذجة ، فقال : يا اصمعي ! قلت : لبيك يا امير المؤمنين ! قال : حدثني بحديث مزرّد اخي الشمّاخ ، قلت : نعم يا امير المؤمنين : ان مزردا ... كانت أمه تؤثر عيالها بالزاد عليه ، وكان ذلك مما يضرّ به ويحفظه ، فذهبت يوما في بعض حقوق اهلها ، وخلّفت مزردا في بيتها ورحلها ، فدخل الخيمة فاخذ صاعين من دقيق ، وصاعا من عجوة ، وصاعا من سمن فضرب بعضه ببعض ، فأكله ثم انشأ يقول :

ولما مضت امي تزور عيالها ... اغرتُ على العكم الذي كان يُمنع
خلطتُ بصاعي حنطة صاع عجوة ... الى صاع سمن فوقه يتريع
ودّبلت امثال الأتافي كأنها ... رؤس رخال قطّعت لا تجمع
وقلت لبطني ابشري اليوم انه ... حمى امّنا مما تفيد وتجمع

ثم يختم كلامه ، وكأنه قد بلغ الغاية في كل شيء ، فيقول :

(١) الالوسي ١/٣٨١
(٢) العقد الفريد ٣/٤٨٤ .

فان كنت مصفوراً فهذا دواؤه وان كنت غرثانا فذا يوم تشبع

قال : فضحك هارون حتىٰ أمسك على بطنه ، واستلقى على ظهره ثم قعد فمد يده وقال : خذا فذا يوم تشبع[1] .

وقلّة الطعام عندهم ، وشدة حاجتهم اليه هي التي جعلتهم يزهّدون فيه ، ويمتدحون الجوع ويذمون الشبع ، ويقولون : « البطنه تذهب الفطنه » يريدون ان الذى يملأ بطنه من الطعام تذهب منه فطنته . وصار الشعراء العرب ولاسيما الجاهليون منهم يكبتون احساسهم بالجوع كبتاً ، ويفخرون به ، ويرون التصريح بهذا الاحساس امراً يخزى منه المرء ويلام عليه . ومن جميل ما يروى لهم في هذا قول الشنفري في القصيدة المنسوبة اليه ، المسماة لاميّة العرب ، اذ يقول :

اديم مطال الجوع حتى اميته واضرب عنه الذكر صفحا فأذهل
واطوى على الخمص الحوايا كما انطوت خيوطة ماريّ تغار وتفتل
واغدو على القوت الزهيد كما غدا ازلّ تهاداه التنائف اطحل

فانت تراه يفخر بانه يطوى الحوايا اى الامعاء على الخمص اى الجوع ، حتى تكون امعاؤه كالخيوط المغار فتلها دقة . يكون هكذا حتى اذا غدا غدا على القوت الزهيد مسرعاً متنقلا كأنه الذئب المغبر ، الخفيف الوركين ، تتقاذفه المفاوز . وهو حين يفخر ، بأن يقول :

وان مدت الأيدي الى الزاد لم اكن بأعجلهم اذ اجشع القوم اعجل

ويفخر بمثل هذا « حاتم الطائي » وهو مضرب المثل في الكرم عندهم ، اذ يقول :

اكفّ يدي عن ان ينال التماسها اكفّ صحابي حين حاجتنا معا
ابيت هضيم الكشح مضطمر الحشا من الجوع اخشى الذّم ان اتضلعا

---

(١) العقد الفريد ٦/٣٠٢ .

وتضلّع الرجل أي امتلاء من الزاد • واذا اراد شاعرهم ان يستهجن ويذم ، قال كما قال حاتم الطائيّ ايضاً[1] :

لحا الله صعلوكا مناه وهمّه من العيش ان يلقى لَبوسا ومغنما
مقيماً مع المثرين ليس ببارح اذا نال جدوى من طعامٍ ومجثما

واذا اراد ان يفخر ويستحسن قال :

ولله صعلوك يساور همّه ويمضي على الأحداث والدهر مقدما
فتىً طلباتٍ لا يرى الخَمص ترحةً ولا شبعةً ان نالها عدّ مغنما

الى ان يقول :

فذلك ان يهلكْ فحسنى ثناؤه وانَ عاش لم يقعد ضعيفاً مذمّما

وعدوا شكاة الجوع منقصة توجب اللوم • وقلّ ان تجد شاعرا اسلاميا في الصدر الاول يصف الجوع الذي يُحسُّه • ولا ترى شكواهم الا فى حالات نادرة يعرّضون بها تعريضاً ، يستدرون به عطف الممدوح ، واذا اراد احدهم ان يُمعن في هذا قال كما قال جرير للخليفة عبدالملك بن مروان[2] •

تعزّت أمُّ حَزْرَةَ ثم قالت رأيتُ الموسرين ذوي امتداح
تُعلل ، وهي ساغِبةٌ ، بينها بأنفاسٍ من الشَّبِم القَراح

فتراه يشتكي للخليفة جوع زوجته وابنائه ، ولكنه يخجل ان يتحدث عن احساسه بذلك الجوع •

اما الحديث عن شهوة الطعام ، ووصف هذه الشهوة عندهم فأمر لا نكاد نعثر عليه • وقد علل ابو حيّان هذا بما نقله عن ابي سليمان المنطقي بأن قال : ان الحرَف الذي يدعى في العربية ويُنسب الى الأدب موروث من العرب ، وذلك ان ارضها ارض جدب • والخصب فيها عارض ، وهم من أجل ذلك اصحاب نقر وضر ، وربما دفعوا الى وصال وطيّ • وكل من

(١) بلوغ الأرب للآلوسي ١/٨٠ •
(٢) ديوان جرير ص ٩٦ •

تشبه بهم في كلامهم وطريقتهم وعبارتهم ، ارتضخ الى ما هو غالب عليهم من الحَرف والاخفاق اللذين عليهما الفهما . الا ترى أن الشبع غريب عندهم والرعب مذموم منهم ؟ » .

فكأن ابا سليمان هذا يرى ان امر الحياة قد انقلب في صحراء بلاد العرب ، واصبح الطارىء اصلاً ، والأصل طارئاً . والواحد منهم لا يشكو الجوع ، لأن الجوع أمر طبيعي . يبيت عليه كل انسان منهم .

وبعد هذا الذي قلناه ، لاتعجب ان ترى ، ان شعرهم في الطعام قليل قليل ، اذا قيس بشعرهم في الغزل والعشق مثلا . هذا مع الحاح الجوع على الشاعر في اهاجة الشاعرية وفي الشكوى ، والاستغاثة منه .

ودرج المجتمع الاسلامي على هذا ، حتى قالوا : ان الشبع مذموم بالعقل والنقل ، وانه يقسّى القلب بخلاف الجوع فانه يرققه ، ويصفّيه . ورووا عن بعض العارفين انه قال : القلب اذا جاع وعطش صفا ورقّ ، واذا شبع عمى . وافاضوا في فضائل الجوع كما افاضوا في ذم الشبع ومضارّه ، ورووا عن الرسول الكريم انه قال : « المؤمن يأكل في معى واحد ، والكافر يأكل في سبعة امعاء » وفسّروا قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا بأن قالوا : ان هذا يعني ان الكافر يأكل سبعة أمثال المؤمن[1] . وفي هذا ما فيه من التعريض ، والذم لكثيري الأكل .

وقالوا : ان رجلاً من اهل الشام ، قال لرجل من اهل المدينة : عجبت منكم[2] ، ان فقهاءكم اظرف من فقهائنا ، ومجانينكم اظرف من مجانينا ، قال : أو تدري من اين ذلك !؟ قال : لا ادري . قال : من الجوع . ألا تدري ان العود انما صفا صوته ، لما خلا جوفه ؟

ودرج الشعراء الاسلاميون على هذا ، او قل ان شئت عن التحرّج بالحديث عن الرغبة في الطعام والشهوة اليه . وساعد على هذا ان كانت الثروة في زمن الخلفاء

---

(١) بلوغ الارب للالوسي حـ ١ ص ٣٧٨ .

(٢) العقد الفريد ص حـ ٨ : ٣٠٤ .

الراشدين ، وزمن بني امية موزّعة توزيعاً ، يكاد يضمن لكل فرد حقه في العيش . نعم كان هناك فقر وبذخ ، ولكنهما لم يبلغا بالناس ما بلغاه في القرن الثالث الهجري وما بعده ، ايام بني العبّاس . يقول استاذي الجليل المرحوم احمد امين بك في كتابه ظهر الاسلام[1] « وحيثما نظرنا الى كل قطر من أقطار العالم الاسلامي في ذلك العصر ، رأينا الثروة غير موزّعة توزيعا عادلا ، ولا متقارباً . ورأينا الحدود بين الطبقات واضحة كل الوضوح ، فجنّة ونار ، ونعيم مفرط ، وبؤس مفرط ، وامعان في الترف يقابله فقدان القوت ... » وزاد في الأمر ان كثرت الفتن والحروب ، واشتغل الناس بها عن زراعة الأرض وكثرت الخلافات بين الناس مذهبيّة وسياسيّة ، وكثر اللصوص والعيّارون . هذه الأمور وغيرها من اسباب الفساد جعلت الشعراء يفصحون برغبتهم وحاجتهم الى الطعام ، ولم يعودوا يخجلون من هذا الافصاح ، كما كان يفعل اسلافهم الشعراء الأوائل .

هذا التوحيدي ، وهو من هو عِلْماً وادباً وفلسفة وبلاغة وتصوّفاً واتصالاً بالعلماء والوزراء بلغت به الحال ان يقول لأبي الوفاء المهندس في رسالته اليه : « خلصني ايها الرجل من التكفّف ، انقذني من لبس الفقر ، اكفني مؤنة الغداء والعشاء . الى متى الكسيرة اليابسة ، والبقيلة الذاوية ، قد بُحَّ - والله - الحلق ، وتغيّر الخلق . الله الله في امري ! قد اذلني السفر من بلد الى بلد ، وخذلني الوقوف على باب باب ونكرني العارف ، وتباعدني القريب مني .... »[2] وهذا عبدالوهاب البغدادي المالكي فقيه اديب شاعر ، لم يكن في المالكيين افقه منه في زمانه ، نزل معرّة النعمان في رحلته واضافه ابو العلاء المعرّي ، وقال فيه :

والمالكيّ ابن نصرٍ زار في سَفَرٍ ... بلادنا ، فحمِدنا النأي والسَفَرا
اذا تفقّه احيـا مالكاً جَدَلاً ... وينشرُ الملكَ الضِّلِّيل ان شعرا

هذا كلّه تضيق به المعيشة في بغداد ، حتى لا يجد قوت يومه ، ويخرج عنها

---

(١) ج ١ ص : ٩٧ .
(٢) الامتاع والموانسة - للتوحيدي ٣/٢٢٦ .

طالباً للرزق ، ويشيّعه اكابرها ، فيقول لهم : « لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كلّ غَداة ، ما عدلت عن بلدكم ، وينشىء يقول :

سلامٌ على بغداد في كلّ موطن ... وحقّ لها منيّ سلامٌ مُضاعَفُ
فوالله ما فارقتُها عن قِلىً لها ... واني بشطّيْ جانبيها لعارفُ
ولكنها ضاقت عليّ بأسْرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف[1]

وهذا ابو علي القالي ، البغدادي ، صاحب الأمالي ، ضاقت به الحال قبل أن يرحل الى الأندلس ، حتى اضطرّ ان يبيع بعض كتبه وهي اعزّ ما عنده . باع نسخة من كتاب الجمهرة ، وكان كلفاً بها .... واشتراها الشريف المرتضى فوجد عليها بخط ابي علىّ :

أنِستُ بها عشرين حولاً وبعتُها ... وقد طال وَجْدي بعدها وحنيني
وما كان ظنّي انني سأبيعها ... ولو خلّدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبيةٍ ... صغارٍ عليهم تستهلُّ جفوني
فقلت – ولم املك سوابق عَبرة – ... مقالة مكويّ الفؤاد حزين
وقد تُخرج الحاجات يا امَّ مالكٍ ... ودائعَ من ربٍّ بهنّ ضنين[2]

هذه الحال ، تقابلها حال على درجة كبيرة من الترف والاسراف ، يقول متز في كتابه الحضارة الاسلامية[3] « وكان شهر رمضان هو الشهر الذي يتجلّى فيه منتهى الكرم عند المسلمين ، ويحكى عن الوزير ابن عبّاد ان داره كانت لا تخلو في كلّ ليلة من ليالي رمضان من الف نفس تفطر فيها . وكان لؤلؤ الحاجب في ايام الفاطميين يفرّق في اليوم اثنى عشر الف رغيف مع قِدَر الطعام ، فاذا دخل رمضان اضعف ذلك ، ووقف هو بنفسه يفرّقه[4] .

ويقولون عن الوزير ابن الفرات ان الوان الطعام كانت توضع وترفع على

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٣١ .
(٢) ظهر الاسلام ١/١١٧ وما بعدها .
(٣) الترجمة العربية للدكتور ابي ريده ج ٢ ص ٢٩٢ .
(٤) المقريزي ١/٨٥ .

مائدته اكثر من ساعتين ، وكان في داره مطبخان : مطبخ الخاصة ، ولا يمكن ان يحصى ما كان يدخله من الحيوان لكثرته ، ومطبخ العامة الذي يختص بما يقدم الى الحجاب المقيمين في الدار ... وكان يقدم الى هذا المطبخ كل يوم تسعون رأساً من الغنم ، وثلاثون جدياً ومائتا قطعة دجاجا وسماناً ، وفراريج مصدرة ، ومائة قطعة دراجاً ومائتا قطعة فراخاً ، وهناك خبّازون يخبزون الخبز ليلاً ونهاراً . وقوم يعملون الحلوى عملاً متصلاً ، ودار كبيرة للشراب . وكانت داره مدينة بذاتها ، حتى كان بها فوجان من الخيّاطين[1] .

اما التأنق في طريقة الطعام ، فتراها فيما نقل عن الوزير المهلبي ، قالوا انه كان لا يأكل بالملعقة الواحدة أكثر من لقمة واحدة ، وان خادماً يقف عن يمينه حين يأكل فيناوله الملعقة ، ويقف آخر عن يساره يستلمها منه بعد ان يأكل لقمة واحـــدة .

ويذكر صاحب كتاب الموشّي في زي الظرفاء في الطعام فيقول : اعلم ان اول ما استعملوه تصغير اللقم ، والتجلّل عن الشره والنهم ، وأكل الاوساط الرقاق ... وليس يأكلون العصبة والعضلة ، ولا العرق والكلوة ، ولا الكرش والقبّة ، ولا الطحال والرئة ، ولا يتحسون المرق ، ولا يتتبعون مواضع الدسم ، ولا يملأون ايديهم بالزهم ولا ولا ... » ولا يمشّشون من العظام كراديس قصب الساق الغليظ . وانما مشاشهم ما لان وصغر ، لا ما غلُظ وكبر[2] » . ثم يفيض في هذا ...

وهكذا ترى ان الطعام عند هؤلاء لم يعد يطلب لسدّ حاجة ، ولكنه صار وسيلة للذّة ، وكثر التأنق فيه حتى صار حظ العين منه أكثر من حظ اللســـان والفم .

هذا البون الشاسع بين اناس يتأنقون في المائدة والطعام الى هذا الحد واناس لا يجدون القوت ـ هذا البون الشاسع هو الذي جعل الكتاب والشعراء يطرحون

---

(١) الحضارة الاسلامية لمتز ١/١٥٧ .
(٢) كتاب الموشى ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

الحشمة ، ويصرخون او يفغرون بالشكوى من الجوع ، ويخرجون على سنة العرب من التورّع في الحديث عن الجوع وذكره . يرى ابن الحجاج الشاعر كلاب الامير بختيار البويهي ، الملقّب بعز الدولة يراها تطعم لحوم الجدا فتهيج في نفسه الشهوة الى اللحم ، فلا يتورّع ان يفصح عما خالج نفسه من شعور ، ويقول انه تمنى لو كان واحداً منها ، يشاركها اللحم طعامها ، يقول[1] :

رأيت كلابَ مولانا وقوفاً ... ورابضةً على ظهر الطريق
فمن وَردٍ له ذنبٌ طويلٌ ... يعقّفه ومهلوبٍ خلوقي
تُغذّى بالجدا فودِدتُ أنّي ... – وحقِّ الله – خركوش سلوقي
جفاني اللحم وهو شقيق روحي ... فمن يعدي على ذاك الشفيق
فيا مولاي رافقني بكلبٍ ... لآكل كلَّ يوم مع رَفيقي

وفي يتيمة الثعالبي لشاعر يحن الى الهلام ، يتحسر عليه ويتمناه كما يتمنى ما يعز ويبعد مناله ، يقول :

نفسي تحن الى الهلا ... م الموت من دون الهُلام

ثم يصف هذا الهلام ويفسّره ، لا ليوضّحه لمن لم يفهم معناه ولكنه يأخذ في ذكره لأنه يجد اللذة في هذا التفصيل :

من لحم جدى راضع ... رخص المفاصل والعظام
حيِّ القدور الراسيا ... ت وان صممن عن الكلام
وقصاعهن اذا أتينـ ... ـك طافحات بالسلام

وكان من تمام ظرف النديم ان يحذق أمر الطعام ، ويحفظ ما قيل في وصفه . وقد اتخذ وصف الشعراء المحرومين للاطعمة وسيلة يثار بها خيال الطبقة العالية، فتتحرك شهوتها الى الاكل[2]. وربما كان ابن الرومي أشهر وصّافي

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٣ ص ٥٠ .
(٢) كتاب الوصف فى شعر العراق للدكتور جميل سعيد ص : ٣٢٦ وما بعدها .

الطعام . وكان شعره أكثر الشعر انشاداً على الموائد . يقول محمد بن يحيى الصولي : اكلنا يوما بين يدي المكتفى فجاءت « لوزينجة » فقال هل وصف ابن الرومي اللوزينج ؟ فقلت نعم . فقال : انشدنيه . فأنشدته :

لا يخطئني منك لوزينج ... اذا بدا اعجب او عجبّا
لم تغلق الشهوة ابوابها ... الا ابت زلفاه ان يحجبا
مستكثف الحشو ولكنه ... ارقّ جلداً من نسيم الصبا
كانما قُدّت جلابيبُه ... من أعين القطر الذي طنبا
لو انه صيّر من خبزه ... ثغراً لكان الواضحَ الاشنبا

والابيات كثيرة .. يقول : « وحَفِظها المكتفى فكان يُنشدُها . واخبر احمد بن حمدون . قال تذاكرنا يوماً بحضرة المكتفى ، فقال أفيكم من يحفظُ في نبيذ الدوشاب شيئاً ، فأنشدتُه قولَ ابن الرومي :

اذا أخذتَ حبّه ودِبْسَه ... ثم أجدتَ ضربَه ومرسَه
ثم أطلت في الاناءِ حبَسَه ... شربت منه البابليَّ نفسه

فقال المكتفى : « قبّحه الله ما اشرهه ، لقد شوّقني في هذا اليوم الى شرب الدوشاب » .

كان عضد الدولة البويهي يطلب أن يقال في وصف ما يوضع على مائدته من الاطعمة ... واهتمامُ الطبقة العالية وتأنقُهم في الطعام ، وطلبُهم وصفَه والحديثَ عنه جعل المؤلفين يؤلفون فيه الكتب[1] ، الف ابراهيم بنُ المهدي ، وعليُّ بن هارون المنجم ، وابراهيمُ بنُ العباسي الصولي كتباً في الطبيخ ، وألّفَ جحظةُ البرمكي « كتابَ الطبيخ وفضائل السكباج . »

ويظهر أنّ هذه الكتبَ لم تؤلفْ للطباخين تعلّمُهم كيفيةَ الطهي ، ولكنها كُتبت باسلوب ادبيٍّ يقصد من ورائه استثارةُ الخيال وتحريكُ الشهوة الى الطعام . وألّفتْ الكتب في ترتيب الأكل على الموائد ، وأيّ الطعام يُبدأ به

(١) الحضارة الاسلامية لمتز ٢/٢٠٠ والفهرست ص ١٤٥ .

اولاً ، فكتب الرازي «ما يقدم من الاطعمة وما يؤخر» وكتب «ترتيب اكل الفواكه» والف قسطا بن لوقا: «النبيذ وشربه في الولائم» . وشاعت كتب الطعام ، حتى صار الادباء يسمّون الكتب تبحث في الادب بقريب من اسماء كتب الطعام ، فالثعالبي يؤلف كتاباً يسميه : «حشو اللوزينج»[1] يبحث فيه بعض حشو الكلام الذي يراه أفضل من الكلام نفسه ، ككلمة «وحاشاك» في قول ابي الطيب المتنبي :

وتحتقر الدنيا احتقار مجرّبٍ يرى كلّ ما فيها ـ وحاشاك ـ فانيا

وربما كانت كتب الطبخ من اجلّ ما يُهدى من الكتب . مرض ابن العميد ثم بلّ من مرضه ، فلم يجد ابن خلاّد شيئاً يبعثه اليه احسن من كتاب في الاطعمة ، وقد ردّ عليه ابن العميد بقصيدةٍ طويلة اولها :

فهمتُ كتابَك في الاطعمة وما كان نوليَ أن افهمه
فكم هاج من قَرَمٍ ساكنٍ واوضح من شهوةٍ مُبهمه
وارّثَ في كبدي غُلّةً من الجوع نيرانُها مُضرَمه
فكيف عَمِدت به ناقهاً جوانحه للطَوى مُسلَمه
خَفَوقَ الحشى ان تُصِخ تَستَمع من الجوع في صدره همهمه
تُتيح به شَرَهاً مُوجِعاً وتُغرى به نَهمةً مؤلمه

ثم يتحدث ابن العميد في الطعام ويُفيض ... والقصيدة طويلة تبلغ الاربعين بيتاً ، يُجيد ابن العميد حديث الطعام فيها اجادة يقرب بها من ابن الرومي . ويذكر الثعالبي ان الطبيب كان منعه من الأكل ، وربما كان لهذا الحرمان كبير الأثر في اجادته هذه .

وقد ردّ عليه ابن خلاّد بقصيدةٍ كقصيدته ، بيّن فيها غرضه من الكتاب ، قال منها :

---

(١) انظر كتابه ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ص ٤٨٩ .

الا يا حبّذا ثم يا حبّذا كتابيَ المصنّفَ في الأطعمة
كفانا به اللهُ ما راعنا بعلّة سيدِنا المؤلمة
اطاب الحديثَ له في الطعا م ففتّق شهوته المبهَمة

على أن شاعرَ العربية ، بل ربما وغير العربية ايضاً ، في هذا الفنِ هو ابنُ الرومي . واذا قلنا انّ شاعر العشق الأول في العربية هو المجنون ، وانّ شاعر الحرب المتنبي ، وان شاعر الزهد ابو العتاهية ، وان شاعرَ الخمر ابو نواس . اذا قلنا هذا فنستطيعُ ان نقولَ انّ شاعرَ المائدة او الطعام هو ابنُ الرومي .

وقد ساعده الحرمان على فنه هذا . يمدحُ ويسير شعره ولا يثاب ، فيقول :

ايسيرُ مدحي في الأمير وكُلّه يالرجال مؤرّجٌ بعتاب
ما قلتُ قافيةً تخبّر أنّه فيما يُثيب اثابني بثواب
ظني لئن انا دام لى حرمانهُ لألقبنّ بشاعر خيّاب

ويبدو انّ حرمان الأمير هذا دام لابن الرومي . ويمدح ابن المدبّر ، ولا يثيبهُ ، ويلجُ ابنُ الرومي في طلبِ الثواب ، فيقول له ابن المدبر « خذْ شعرك امدحْ به غيري » فينصرف ابن الرومي مرددا قولَ ابنِ المدبّر بكلام اقرب الى النُواح والبُكاء منه الى الحديث والكلام ، يقول وكأنه يعاتبهُ ويناجيه :

رددتَ عليّ مدحي بعد مطلٍ وقد دنّستَ مَلْبَسه الجديدا
وقلتَ امدح به مَن شئتَ غيري ومن ذا يقبل المدح الرديدا !؟

ومدح اسماعيلَ بنَ بلبل بقصيدة طويلة ، وكان اسماعيلُ هذا يُكنى « ابا الصقر » منها :

هذا الذي حكمتْ قِدْماً بسؤدده عدنانُ ثم اجازت ذاكَ قحطانُ
قالوا ابو الصقر من شَيبان قلتُ لهم كلا لعمري ولكن منه شيبان

فقال ابو الصقر : هجاني والله ! وقيلَ له : هذا من احسن المديح ، اسمع ما بعدَه :

وكم ابٍ قد علا بابن ذُرى شرفٍ كما علا برسولِ اللهِ عدنانُ

فقال : انا بشيبان لا شيبان بي • قيل له : فقد قال :

ولـم اقصّر بشيبانَ التي بلغتْ بها المبالـغَ إعراقٌ وأغصـانُ

لله شـيبان قـومٌ لا يُشيبُهم روعٌ اذ الروعُ شابت منه ولـدان

فقال : « والله لا اثبته على هذا الشعر وقد هجاني فيـه • وواضح انّ ابا الصقر هذا انما يتعلل بالأسباب ليحرمَ ابنَ الرومي من ثوابه ، ••• وبعد هـذا الجزاء انقلب ابنُ الرومي الى الهجاء ، عساه يحصُل به على ما لم يحصل عليـه بالمديح • انقلب على اسماعيل بن بلبل يهجوه ، متخذاً من كنيته « ابي الصقر » ومن اسم ابيه وهو « بلبل » سلّما الى هجائه ، وراح يقول :

ابوه بلبلٌ ضاوٍ ويُكنى أبا صَقرٍ فكنيتهُ محاله

ويقول :

ما بال فـرخٍ ابوه بُلبلٌ رُبَحٌ يكنى « ابا الصقر » يا اهل الدواوين

عَرّوه من كنيةٍ ليستْ تليق بـه يكنى «ابا الصقر» من كان «ابن شاهين»

وأفلس ايضـاً فحـوّل وجهـه الى الشـعراء يهجوهـم ، هجـا البحتـريَّ فأهـدى اليـه البحتـريّ - على ما فيـه من بُخل وشُح - تختَ متاع وكيس دراهم ، وكتب اليه أن الهديةَ ليست تقية منه ، ولكنها رقة عليه • وتوجه نحو الشاعر جحظة البرمكي ، يقول له :

ابا حسـن وانت فتىً اديبُ له في كلّ مكرمـةٍ نصيبُ

لقد ولـدتك آباءٌ كـرامٌ من الآباء ليسَ لهم ضريبُ

اترضى ان يقول لك المرجّى لأنت المرءُ راجيـه يخيب ؟

وجحظة الشاعر هذا هو الذي يقول : « امسيتُ افلسَ من طُنبور بلا وتر » وهو الذي عزّ قوتُه في الشعر فراح يتكسّبُ بطنبوره وغنائه ، ومع ذلك فقـد قال ايضاً :

وقائلٍ ان شدوتُ ـ احسنتَ زدني وبأحسنتَ لا يباع دقيقُ

واذا علمنا ان ابنَ الروميّ وصلتْ به الحالُ لأن يطلبَ العطاء من البحتري وجحظة ، علمنا بأيّ ضنكٍ من العيش كان يعيش .

وعلم بعضُ ممدوحيه بفاقته ، وحبّه للطعام ونهمه ، وتهالكه عليه ، فاكتفوا من ثوابه على مديحهم بأن يدعوه الى وَليمة يأكلُ فيها ، وهُم يمنّون عليه في هذه الدعوة ويرونها شيئاً كبيراً ، يقول :

اذا امتاحهم أكلةً عبدوه تعبيد ربٍّ لمربوبه

يَخالون انهم بلغوه بالقوت افضل مطلوبه

ويتحدث الينا عن شرهه في هذه الولائم ، التي يُدعي اليها فلا يقتصد ولا يحتشم ، بل هو يُسرع في بلعِ الطعام يحاولُ ان يَزدردّه ازدراداً ، يرمي اللقمة في فمه ، ويُدخل عليها الأخرى قبل ان يمضغها ، ويُعاب على هذا ويُذَم فيردّ على عائبه ، بأنه انما جاء ما جاءَ هفوةً لا تعمّداً ، يقول :

أإن اصطبغتُ ولقمتي معضوضةٌ انشأتَ تهجوني بذلك ظالما

عيبٌ لعمركَ غير أنْ لم آته عَمْداً فهبني هافياً لا جارما

ويكثر من الطعام في وليمةٍ ، فتلومه ، قسطنطين ، جاريةُ امّ حبيب ، وتحذّره التُخمةَ ، فيرد عليها بقوله :

ذريني قسطنطينُ آكلُ شهوتي وتَبشمُني ، اني بذلك راضي

فأكثرُ ما القي من الزاد كَضّةً مدى يومها ، واليومُ اسرع ماض

وكأنه حين ينصرفُ من مثلِ هذه الولائم ، يظلّ يتذكرُ الزادَ الشهيَّ الذي اكله فيها ، فتهيجُ شهوتُه للطعام . ويزيدُ في شهوته ونهمه ما يراه في اسواق بغداد ؛ مدينةِ البذخ والترف ، ومدينةِ البؤسِ والشقاء ايضاً . ويصف لنا حاله بأن صورَ الطعامِ تظلّ تدورُ في رأسه حتى اذا نام رآها في نومه واحلامه ،

ثم رأى نفسه يباعَدُ بينهَ وبينها حتى في النوم ، فيستيقظُ والحسرةُ تملأ نفسه ويقول :

ولقد مُنعتُ من المرافق كلّها ... حتى مُنِعتُ مرافق الأحلام
من ذاكَ أني ما ا راني طاعماً ... في النوم او متعرّضاً لطعام
الا رأيتُ من الشقاء كأنني ... اُثنى واكبح دونه بلجام

وتظلُّ صور الطعام وخيالاتهُ ترافق ابن الرومي مرافقةَ الظل ، فاذا هجا قال :

واما يدُ البصريّ في كل صفحة ... فأقلعُ من سيل وأعزقُ من رفش
يبادر في قلع الطعامِ كأنّه ... وكيلُ يتيم ، او مُريبٌ على نبشِ

وتطلعُ علينا صورُ الطعام من شعره وهو يتغزّل . انه يحشرُ صورَ الفاكهة كلّها ثم يشبّه بها ما يُعجبُه من النساء . ويقولون ان عُبيدَ الله بنَ عبدِ الله بن طاهر كان يُسمي قصيدته هذه ، وهي التي مدح بها « ابا الصقر » كان يسميها « دار البطيخ » يقول فيها :

اجنت لك الوجد اغصانٌ وكُثبان ... فيهن نوعان تفّاحٌ ورمّان
وفوق ذينكِ اعنابٌ مهدّلةٌ ... سودٌ لهنّ من الظلماء الوان
وتحت هاتيك عُنّابٌ تلوح به ... اطرافهُنّ قلوبُ القوم تِيران
غُصونُ بانٍ عليها الدهرَ فاكهةٌ ... وما الفواكه مما يحمل البان
اُلّفن من كلّ شيء طيّبٍ حسن ... فهن فاكهة شتّى وريحان

ويبدو نَهِماً حين يتحدث عن كل صِنْفٍ من اصناف الطعام ، حتى لا تدري بأي انواعها يُعجب ، واي انواعها يُفضّل . انه شرِهٌ نَهِمٌ حين يصف الرؤوسَ ، وهو كذلك حين يتحدّث عن السمكِ او الدجاج او الحلوى او الفاكهة ، حتى ليخيّل للقارىء انه كلما قرأ قصيدة له في صنف من اصناف

الطعام ورأى نهَمه فيها توهم ان هذا هو المفضّل عنده دون سِواه • يقول عن « مجمع اللذات » وكفى « بمجمع اللذات » تسميةً دليلا على الشره والنهم : ، يقول :

يا سائلي عن « مَجْمع اللذات »	سألتَ عنه أنعتَ النُعّات
خذ يا مُريد المأكل اللذيذ	جُرداقتي خبزٍ من السميذ
لم ترَ عينيْ ناظرٍ مثيلهما	فقشّر الحرفين عن وجهيهما
من لحمِ فَرّوج ولحم فرخ	تدور حوذا باهما بالنفخ
واجعل عليها اسطراً من لوزِ	مُعارضاتٍ أسطراً من جوز
اعجامُها الجبن مع الزيتون	وشكْلُها النَعنَعُ بالطرخون
واعمد الى البيض السليق الأحمر	فدَرْهِم الوسْط به ودثر
وترّب الأشطرَ بالملح ولا	تُكثر ، ولكن قَدَراً معتدلا

وبعد ذلك يقول :

وردد العينينَ فيه لحظا	فان للعينِ فيه حظا
ومَتّع العينَ به ملّيا	واطبِقْ الخبزَ وكُلْ هنيا
واملأ ثنايا كَ وأكدمْ كدما	تُسرعُ فيما قد بنيت هَدْما
ليهفي عليها ! وانا الزعيمُ	بمعدةٍ شيطانها رَجيمُ

وتراه في ارجوزته هذه يكادُ يأكل الطعام بعينيه ، قبلَ ان يأكله بفمه ، وانّ حظّ عينيه منه لا يقلّ متعةً عن حظ فمه ولسانه ، وهو يُمعن في وصف ما يزين به وجه الطعام ، وهو حظ العين منه ، حتى اذا فرغ من ذلك لم يفته ان يقول :

وردّد العينين فيه لحظا	فان للعينين فيه حظا

ثم هو يتحدث عن ادق التفاصيل التي لا تخطر الا ببال آكلٍ جائع نَهِمٍ ، فيقول وكأنه يدير فكّيه على الاكل :

واملأ ثنـاياك واكدم كدما تُسرعُ فيما قد بنيت هدما

ثم يختم ارجوزتَه بحسرةٍ ، يُخيل للقاري منها انه حين كان يتحدث عن الطعام قد وضع في خياله صورة مائدةٍ لامير او وزير ، كان قد دُعي اليهـا ، وأكل فلما فرغ من حديثهِ ، اختتمه بهذه الحسرة :

لهفي عليهـا ، وانا الزعيم بمعـدة شـيطانها رجيـم

ويتحدث عن الرؤوس تخرج من النار بعد شيّها بقوله :

هامٌ وأرغفـــةٌ وضاءٌ فخمةٌ قد اُخرجت من جاحـم فوّار
كوجوه اهل الجنة ابتسمت لنا مقرونة بوجوه اهـــل النـار

وايُّ نَهَمٍ يطلع علينا من بيته الاخير ! انه لا يكتفي بتشبيهها بوجوهِ أهل الجنة ، ولكن بالوجوه المتبسمة منها .

ويتعلق بالسمك ويرى حظه أقلَّ من ان يمكّنَه من الحصول عليـه ، يقول :

فهو من الصياد في أمان ما دمت ابغيـه وفي ضمانِ

ويقول للمرثدي ـ وقصر المرثدي هذا على دجلة ـ يطلُب اليه ان يذيقَـه السمك ، وما اجمل كنايته عنها اذ يسميها : « بنات دجلة » يقول :

وبنـــاتُ دجـــلة في فنائِكم مأسـورةٌ في كلِّ معتـــــرك
بيضٌ كأمثـــالِ السبائك بلْ مشحونةٌ بالشـــحم والعَلَك
تُغني عن الزيات قاليهـــــا وتبخّر الشـــاوين بالـــوَدَك

وهو في ابياته هذه يتوسل الى المرثدي ان يذيقه السمك ، ويصفه وكأنه ينظر اليه نظرةَ من يستعرِضُ قصة صيده وقلْيه وأكله بنفسٍ جائعةٍ شرِهة ،

وايُ نهَم وشوقٍ الى الطعام يطلع على القاريء من بيته الاخير ، اذ يجعل رائحة الزيت ممزوجة برائحة السمك كالبخور ، اذ يقول :

تُغني عن الزيات قاليهـا وتبخّر الشاوين بالوَدك

وبعد فقد كنت اود ان أتناول بالحديث شعراء آخرين تحدثوا عن الطعـام وافاضوا فيه ، ولكني أرى في الذي عرضته الآن من حديث ابن الرومي كفاية . وعساني اعاود الحديث في فرصة اخرى ان شاء الله .